من أقاصيص الأولين

اختيار وتقديم
سامية زكي

هذه نماذج من اقاصيص الاولين تكشف عن قيم عربية اسلامية لانزال في حاجة اليها .

ان الشخصية العربية واضحة تماما في هذه الاقاصيص وان العدالة المطلقة والتضامن الاجتماعي ، والحرص الشديد على قول الحق مهما يكن شان القول في حقه ، والتمسك بالقيم الروحية الخالدة في شان العلاقات بين الناس ـ ان ذلك كله واضح تماما في هذه الاقاصيص .

واني لارجو ان يجد فيها القارىء شيئا آخر غير ما تقدم هو الاسلوب العربي ، المشرق ، الجميل .

انها نماذج في الاساليب التي كان ينهج نهجها الاقدمون من ابناء الامة العربية .

انه النثر المرسل ، القوي الاسر ، الجزل اللفظ ، الذي يكتب فيه الانسان وكانه يتحدث ، او يتحدث فيه الانسان وكانه يملي .

الاقصوصة الاولى

رفع الى الرشيد ان بدمشق رجلا من بني أمية عظيم المال والجاه ، كثير الخيل والجند ، يخشى على المملكة منه .

وكان الرشيد يومئذ بالكوفة .

قال منارة خادم الرشيد : فاستدعاني الرشيد وقال : اركب الساعة الى دمشق وحد معك مائة غلام ، وانتني بفلان الاموي وهذا كتابي الى العامل لا توصله له الا اذا امتنع عليك ، فاذا أجاب فقيده ، وعاجله ، بعد أن تحصي جميع ما تراه وما يتكلم به ، واذكر لي حاله ومآله . وقد اجلتك لذهابك سبعا ولمجيئك سبعا ، ولاقامتك يوما ، افهمت ؟

قلت : نعم .

قال : فسر على بركة الله .

فخرجت أطوي المنازل ليلا ونهارا ، لا انزل الا للصلاة او لقضاء حاجة حتى وصلت ليلة السابع باب دمشق .

ولما فتح الباب دخلت قاصدا دار الاموي ، فاذا هي دار عظيمة هائلة ونعمة طائلة ، وخدم وحشم ، وهيبة ظاهرة ، وكرامة وافرة ، ومصاطب

متسعة ، وغلمان فيها جلوس .

فجعلت على الدار بغير اذن ، فمهتوا وسألوا عني فقيل لهم : ان هذا رسول امير المؤمنين .

ولما صرت في وسط الدار ، رايت أقواما محتشمين ، فظننت ان المطلوب فيهم وسألت عنه .

فقيل لي : هو في الحمام .

اكرموني ، واجلسوني ، وامروا من معي ومن صحبني الى مكان آخر .

اخذت انقد الدار وأتأمل الاحوال حتى اقبل الرجل من الحمام ومعه جماعة كثيرة من كهول ، وشبان ، وحدثه ، وغلمان . فسلم علي ، وسألني عن امير المؤمنين .

اخبرته انه بعافية ، فحمد الله تعالى ثم احضرت له اطباق الفاكهة ، فقال : تقدم يامبارة كل معنا .

فجعلت اكثر اذا لم يكلمني وقلت ما آكل .

فلم يعاودني — ورايت عالم ازه الاهلي دار الخلافة .

ثم قدم الطعام فوالله ما رايت احسن ترتيبا ، ولا اعطر رائحة ، ولا اكثر آنية منه ، فقال : تقدم يامبارة فكل .

قلت : ليست لي به حاجة .

فلم يعاودني .

نظرت الى اصحابي فلم احد احدا منهم عندي ، وحرت لكثرة حدقته وقلة من عندي .

ولما غسل يديه ، احضروا له البخور فتبخر ثم قام فصلى الظهر ، فاتم الركوع والسجود ، واكثر من الركوع بعدها . فلما فرغ استقبلني .

وقال : ما اقدمك يا مبارة ؟

فناولته كتاب امير المؤمنين .

فقبله ، ووضعه على راسه ، ثم فضه وقراه .

ولما فرغ من قراءته استدعى جميع بنيه ، وخواص اصحابه وغلمانه ، وسائر عياله ، فصاقت الدار بهم على سعتها .

طار عقلي ، وما شككت في انه يريد القبض علي .

قال : الطلاق يلزمه ، والحج ، والعتق والصدقة ، وسائر ايمان البيعة — لا يجتمع منكم اثنان في مكان واحد حتى يكشف امره . ثم اوصاهم على الحريم ، ثم استقبلني ، وقدم رجليه ، وقال :

هات يامبارة قيودك .

دعوت الحداد فقيدته ، وحمل حتى وضع في المحمل ، وركبت معه في المحمل وسرنا .

فلما صرنا في ظاهر دمشق ابتدأ يحدثني بانبساط ، ويقول :

هذه الضيعة لي تغل في كل سنة بكذا وكذا . وهذا البستان لي وفيه من غرائب الاشجار وطيب الثمار كذا وكذا وهذه المزارع يحصل لي منها كل سنة كذا وكذا ...

فقلت : يا هذا ، ألست تعلم ان امير المؤمنين اهمه امرك حتى ابعدني خلفك وهو بالكوفة ينتظرك ، وأنت داعب اليه ما تدري ما تقدم عليه ؟ — وقد اخرجتك من منزلك ، ومن بين أهلك ونعمتك .

وحيدا ، فريدا ، وانت تحدثني حديثا غير مفيد ولا نافع لك ، ولا سألتك عنه وكان شغلك بنفسك أولى بك .

فقال : انا لله وانا اليه راجعون . لقد احاطت فراسي فيك يا مبارة ، وماظننت أنك عند الخليفة بهذه المكانة الا لوفور عقلك ، فاذا انت جاهل لا تصلح لمخاطبة الخلفاء .

أما خروجي على ما ذكرت فاني على ثقة من ربي الذي بيده ناصيتي وناصية أمير المؤمنين الذي لايضر ولا ينفع الا بمشيئة الله تعالى ، فان كان قد قضى على بأمر فلا حيلة لي بدفعه ، ولا قدرة لي على منعه ، وان لم يكن قد قدر الله على شيء فلو اجتمع أمير المؤمنين وسائر من على وجه الارض على أن يضروني لم يستطيعوا ذلك الا بادن الله تعالى ومالي ذنب فأخاف وانما هذا واش وشى عند أمير المؤمنين بهتان ، وأمير المؤمنين كامل العقل ،

فاذا اطلع على براءتي فهو لا يستحل مضرتي .

يامارة - على عهد الله لا كلمتك بعدها الا جوابا .

ثم أعرض عني واقبل على التلاوة .

وما زلنا كذلك حتى وافينا الكوفة بكرة اليوم الثالث عشر - واذا السجن قد استفتحنا من عند أمير المؤمنين تكشف اخبارنا .

ولما دخلت على الرشيد قبلت الارض بين يديه . فقال :

هات يا مسارة ، اخبرني من يوم خروجك عني الى يوم قدومك علي .

ابتدأت احدثه بامورى كلها مفصلة، والغضب يظهر في وجهه . فلما انتهيت الى خبره لاولاده وعلمائه وخواصه ، وضيق الدار بهم ، وتفقدى لاصحابي فلم أجد منهم احدا اسود وجهه ، فلما ذكرت يمينه عليهم تلك الايمان المغلظة سهل وجهه . فلما قلت : انه قدم رجليه أسفر وجهه واستبشر . فلما أخبرته بحديثي معه في ضياعه وبساتينه ، وما قلت له ، وما قال لي .

قال : هذا رجل محسود على نعمته مكذوب عليه ، وقد ارعجناه وارعبناه وشوشنا عليه وعلى أولاده واهله ، اخرج اليه وارفع قيوده ، وفكه وادخله على مكرما . ففعلت .

ولما دخل قبل الارض - فرحب به امير المؤمنين ، وأجلسه ، واقبل عليه - فتكلم بكلام فصيح -

فقال له أمير المؤمنين سل حوائجك .

فقال : سرعة رجوعي الى بلدي وجمع شملي بأهلي وولدي .

قال : هذا كائن فسل غيره .

قال : عدل أمير المؤمنين في عماله ، أحوجني الى سؤال .

فتطلع عليه امير المؤمنين ، ثم قال :

- يا مسارة ، اركب الساعة معه حتى ترده الى المكان الذي أخذته منه .

قم في حفظ الله ورعايته ، ولا تقطع اخبارك عنا ، وحوائجك الينا .

***

الاقصوصة الثانية

لما قتل عبد الملك بن مروان عمرو بن سعيد بعد ما صالحه وكتب اليه أمانا وأشهد شهودا - قال عبد الملك لرجل كان يستشيره ويصدر عن رأيه اذا ضاق به الأمر :

- ما رأيك في الذي كان مني ؟

قال : أمر قد فات دركه .

قال : لتقولن ..

قال : حزم لو قتلته وحييت .

قال : أولست بحي ؟

قال : ليس بحي من أوقف نفسه موقفا لا يوثق له بعهد ولا بعقد .

قال عبد الملك : كلام لو سبق سماعه فعلي لأمسكت .

***

الاقصوصة الثالثة

كان معاوية يداول بين سعيد بن العاص وبين مروان بن الحكم في ولاية المدينة . فكان مروان يقارضه -

ودخل سعيد ذات يوم على معاوية فقال له : كيف تركت أبا عبد الملك ؟ يعني مروان .

قال : تركته مسعدا لأمرك ، مصلحا لعملك .

قال معاوية : انه كصاحب الحنطة كفى اصلاحها فاكلها .

قال سعيد : كلا يا أمير المؤمنين ، انه من قوم لا ياكلون الا ما حصدوا ، ولا يحصدون الا ما زرعوا .

قال معاوية : فما الذي باعد بينك وبينه ؟

قال سعيد : حقه على شرق ، وحاقني على مثله .

قال معاوية : فاي شيء كان لعبدك؟

قال سعيد : أسواه حاضرا ، وأسره غائبا .

قال معاوية : يا ابا عثمان : تركتنا في هذه الحروب .

قال سعيد : حملت الثقل ، وكفيت الحرم .

قال معاوية : فما أبطأ بك ؟

قال سعيد : عناك عني أبطأني عنك، وكنت قريبا ، لو دعوت لاجبتك ، ولو امرت لأطعتك .

قال معاوية : ذلك ظني بك .

ثم أقبل معاوية على أهل الشام فقال : يا أهل الشام ، هؤلاء قومي وهذا كلامهم ثم قال لسعيد : أخبرني عن مالك ، فقد بلغت أنك تتحرى فيه .

قال سعيد : يا امير المؤمنين ، لما مال يخرج لنا منه فضل ، فاذا كان ما خرج قليلا انفقناه على قلته ، وان كان كثيرا فكذلك ، غير أنا لا ندخر منه شيئا عن معسر ، ولا طالب ولا مستحل ، ولا نستأثر منه بفلذة لحم ، ولا مرعة شحم .

قال معاوية : فكم يقوم لك هذا ؟

قال سعيد : من السنة نصفها .

قال معاوية : فما تصنع في باقيها ؟

قال سعيد : نجد من نسلفنا ، ويسارع الى معاملتنا .

قال معاوية : ما أحد أخرج الى ان يصلح من شأنه منك .

قال سعيد : ان شأننا لصالح يا امير المؤمنين ، ولو ردت في مالي مثله ماكنت الا بمثل هذه الحال .

فأمر له معاوية بخمسين الف درهم وقال : اشتر بها ضيعة تميله على مروءتك .

فقال سعيد : بل اشتري بها حمدا وذكرا باقيا ، اطعم بها الجائع ، واروح بها الايم ، وافك بها العاني ، وأواسي بها الصديق ، واصلح بها الجار .

فلم تأت عليه ثلاثة اشهر وعنده منها درهم .

فقال معاوية : ما فضيلة بعد الايمان بالله هي أرفع في الذكرى ، ولا أنبه في الشرف من الجود .. وحسبك ان الله سبحانه وتعالى جعل الجود أحد صفاته .

***

الأقصوصة الرابعة

دخل الزهري على الوليد بن عبدالملك فقال له الوليد :

ـ ما حديث يحدثنا به أهل الشام ؟

قال : وما هو يا امير المؤمنين ؟

قال : يحدثوننا أن الله اذا استرعى عبدا من رعيته كتب له الحسنات ولم يكتب له السيئات .

قال : باطل يا أمير المؤمنين ـ أنبي خليفة أكرم على الله أم خليفة غير نبي ؟

قال : بل نبي خليفة .

قال : فان الله تعالى يقول لنبيه داوود عليه السلام :

يا داوود انا جعلناك خليفة في الارض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله ان الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب .

فهذا وعيد يا أمير المؤمنين لنبي خليفة فما ظنك بخليفة غير نبي ؟

قال : ان الناس ليغرونا عن ديننا